الفصل الثالث

إمارة باديس بن حبوس

(١) من أَوَّليَّتها إلى موت ابن نَغْزالَّة

١٥ - أوَّلِيَّة إمارة باديس بن حَبُوس وتعاظُم الوزير اليهودىّ أبى إبراهيم

وولــى الأمــر مــن بعده جدُّنــا باديــس - نضَّــر الله وَجْهَــه - فحــاوَلَ أُمــوراً كباراً، وشَــقِىَ * [ق ١٢ ب] مع كلِّ أُمَّــةٍ: صِنْهاجة يطلبون مكانه مع يَدَّيْر، وســلاطينُ الأندلُس يرمُون بلاده؛ وهو فى ذلك كلّه حسنُ السياسة، صبورٌ على الأذِيَّة.

وكان أبو إبراهيم اليهودىُّ كاتباً بين يدى أبى العبَّاس كاتب حَبُوس. ولمَّا توفِّى أبو العبّاس المذكور، وترك بَنِينَ، أقام حَبُوس - رحمه الله - أكبَرَهم عِوَضاً من أبيه، واســتعمله مكانه. وكان فى الابن صبوةٌ لا يرتبط معها إلى خدمة الرياسة؛ فمكر به أبو إبراهيم اليهودىُّ، ولزم خدمــة الرئيــس، وصــار، متى عاب وَلَــدُ أبى العبّاس، يحضــر أبو إبراهيم؛ فيســأل عنه حَبُوس؛ فيقول، معتــذراً فــى الظاهر ومطالباً له فــى لَحْن القول: «وَلَدُ أبــى العبّاس، كما ترى، صبــىٌّ يُؤْثِــر الراحة؛ وأنــت جديرٌ بالإغضاء عليــه وإقامةِ عذره. وأنــا عَبْدُه، أنوبُ منابَه؛ فمُرْنى بما شــئْتَ: يتهيَّأ ذلك!» فلم يزل على هذا أبدًا حتّى تمكَّن، وظهرت خدمتُه وسَعْيُه فى ضمّ الأموال.

وكان مع هذا قد ميَّز عن باديس سعادتَه ودهاءه؛ فافترض السَّعْىَ له والتخدُّمَ لإرادته مادَامَ أَمْكَنَهُ ذلك، فى وقت المناوينَ له والقائمين عليه، للذى قدَّر من أيّامه معه.

فلمَّا اتَّفق أعداؤه مع يَدَّيْر عليه، شاركوا فى ذلك أبا إبراهيم، واجتمعوا فى منزله، يرومون قَتْلَ باديس وإقامة يَدَّيْر، وَعَدَهم على الاجتماع عنده. وتقدَّم إلى باديس، وأخبره الخبر، وأتى معــه إلــى المنزل، وقال له: «ليس الخبر كالعيان! اســمَع بأُذْنِــك وَعِ بقلبِك!» وهو بموضع مرتفــع على البيت الذى يرومون فيــه عَمَلَهم، وأبو إبراهيم فى ذلك كلّه يقول عند محاورتهم كالمخاطِــب للبــارئ: «يا مَنْ يَــرَى ولا يُرَى!» وهــو يعنى بذلك باديس جدَّنــا الذى يَراهم ولا يَرَوْنَــه. فشــكر ذلك باديس * [ق ١٣ أ] لأبى إبراهيم، وأيقــن بثِقَته وأَمانته. وصار له خادمًا من ذلك النهار، وشاوَرَه فى أكثر رأْيه مع بنى عمّه.

وكان فى اليهودىّ من الكيس والمُداراة للناس ما طابَقَ الزمانَ الذى كانوا فيه والقوم الذين يرمونهم. فاستعمله لذلك استيحاشاً من غيره، ولماَ كان يَرَى من طَلَب بنى عمّه له، ولأنّ هذا يهودىٌّ ذِمّىٌّ، لا تشرهُ نفسُه إلى ولاية، ولا هو أَنْدَلُسِيٌّ، فيتّقَى منه إدخالَ داخِلةٍ مع غير جنسه من السلاطين، ولاحتياجه إلى الأموال التى يطبى بها بنى عمّه، ويحاول بها أمْرَ المُلْك، لم يكن له بُدٌّ من مثله أن يجمع له من الأموال ما يُدرك معها الآمال. ولم يكن له تَسَلُّطٌ على مُسْلِم فى حِقّ ولا باطِل، ولأنّ الرعايا أكْثَرُهم بتلك البلدة، والعُمّال إنّما كانوا يَهُوداً؛ فكان يَجْبى منهم الأموالَ ويعطيه؛ فيلقى ظالمًا منهم إلى ظلمةٍ، يأخذ منهم ما [يملأ به] بيت المال؛ وإقامة أود المملكة أَوْلَى به منهم.

١٦ - فشل المؤامرة التى دبّرها يَدّير بن حُباسة ضدّ باديس

فلما ولى باديس، كَثُرَ عليه الخلافُ والهَرَجُ، واتفّق رأْيُهم على ما قدّمنا على قتله وتولية يَدّير. وأعطى على ذلك أقوامًا المثاقيلَ والصكوكَ بالإنزالات القويّة.

وكانت عادة السلطان أن يخرج إلى موضِع يُعرف بالرَّمْلة، وبإزائها مُنْيَةٌ كان يحكم بها حَبُّوس أبوه؛ وكان لها بابان، [فاتفقوا] على أن يقيموا المَلْعَبَ، ويقتلوه عند خروجه من تلك المَنْيَة، وهُمْ قد تسلّحوا بالدروع من تحت الثياب، عازمين على الشرّ.

وكان ممّن ارْتُشِىَ على ذلك شيخٌ من صِنْهاجة يُعْرَف بفرْقان، أُعْطِى خمسمائة مثقال وصَكًا بقَرْيَةِ قُولْجَر من عَمَل السُّطح. فقال فى نفسه: «لم أَجِدْ فُرْصةً نحظى بها عند باديس أمْكَنَ * [ق ١٣ ب] من هذه» فجعل أنّ الفَرَسَ زَادَ به فى جَرْيِه، كأنّه جمح، حتى دخل المُنْيَة، وألقى باديس على الخروج من ذلك الباب؛ فقال له مختلِسًا: «انجُ بنفسك واخْرُجْ من الباب الآخر! فإنّ الملأ يأتمرون بك ليقتلوك!» وأراه الدنانيرَ التى أُعطى على ذلك. فخرج باديس من الباب الآخر، يجدُّ فى السير إلى قَصَبَتِهِ؛ وهُمْ لا يشعرون، ينتظرونه.

فبينما هُمْ على ذلك، إذا بعَلِىّ بن القَرَوِىّ وأصحابه من وزراءِ باديس وثِقاتِهِ قد أقبلوا إليهم؛ فقالوا لهم: «إنّ السلطان وَرَدَ عليه من بعض أَنْظاره خَبَرٌ مُقْلِقٌ وجب الانصراف له؛ فاعذِروه فى تخلفه عنكم! ومع هذا، فإنّه لم يَخْفَ عليه شىءٌ!» فلما سمع القومُ بذلك، فكلُّ من كان فى نفسه خَبَرٌ هرب على المقام، وهرب يَدّيرُ بنُ حُبَاسة، لايلتفتون على شىء، يطلبون النجاة بمُهَجِهم.

ثمّ افتضحت القضايا كلها لباديس من بعد هروبه؛ ومشى اليه بالنصائح كثيرٌ ممّن بغاهُ قبل ذلك. وطلع إليه أَخُوهُ بُلُقّين، وبكى بين يديه، وسأله العَفْوَ عمّا أَدْخَلَهُ فيه الفاسِقُ ابنُ عمّه، وأنّه لم يَزَلْ به أَبَدًا يروم ذلك منه لولا تَثَبُّتُه وشفقته عليه. وإنّ يَدّير خرج عن البلدة، وصار فى حيِّز الأعداءِ؛ وكلُّ رئيسٍ قد انتدب إلى فِتْنة جدّنا - رحمه الله - ينحازُ هو إليه، ويصير من أعوانه وعلى أجناده، يَدُلُّ بهم البَلَد، ويُريهم المَخادِع، ويكشف لهم من عَوْرات الجهة ما خَفِى عنهم، لا يفترُ بالضرب عليه وتَهْتِيكِ بلاده؛ وجدُّنا فى هذا لا يأوى معه إلى راحةٍ، ولا يقرُّ به قرارٌ.

وصِنْهاجة مع هذا يخاطِبُونه، حتى إنه وقعت بيد السلطان باديس - رحمه الله - كُتُبٌ كثيـرةٌ مـن عند صِنْهاجة إلى يَدّيْر، تضمَّنت أَزْيَد من مائتَيْ رَجُلٍ * [ق ١٤ أ] من الأكابر. فغضب لذلك، وهَمَّ بقتلهم. وشاوَرَ أبا إبراهيم في الأمر، فقال له: «أرى من الرأى ألاَّ تُؤنِّبَ أَحَـدًا علـى هذه الكُتُـب، ولا تعلمهم أنَّها صارت إليـك. وأن تأمُرَ الآن بنـار تحرقها بها وتطفـىء أَثَرَهَـا؛ ورأسُ العقـل مُداراةُ الناس. فـإن عاقَبْتَ، كم عَسَـى [أن] تُعاقِب، وهُمْ أجْنادُك وأَجْنِحَتُك! فاحْتَلْ للأمر بغَيْر هذا الوجه!» فقبل نصيحته، واسـتعان ببَعْضهم على بَعْض، وأفشى فيهم العطايا، وضرب الابْنَ بأبيه والأخَ بأخيه.

فـكان دأبُ يَدّيْـر هكذا أبـدًا، لايقرُّ عـن الضرب على بـلاده ومعاودة ذلك بلا سـآمة ولا فتـرة، إلـى أن أظفره الله به وصار في ثِقَافه. وذُكِرَ أنّه مـات مقروعًا حَتْفَ أَنْفه. وتأَتَّت الأمور لباديس من بعده، وصفا له الجوُّ.

١٧ - انتصار باديس على زُهَير صاحب المرِيَّة

وأوَّلُ فَتْح أَفَاءَ الله عليه هزيمتُه لزُهَيْر الخَصيِّ والي المَرِيَّة. وكان له كاتبٌ، يُعرف بولَد عبَّاس ، من أشـدِّ الناس حماقةً واستخفافًا، مُثيرًا للشـرِّ، مؤرِّشًا بين الملوك؛ وكان الغالِبَ علـى أمـر زُهَيْـر، إذ لم يكن زُهَيْر يصلح لشـيءٍ لغباوته وجَهْله. وكان قـد جمع كلَّ خَصيٍّ بالأنْدَلُس واحتفل؛ فبالغَ. وأدركه الطمع في غَرْناطة، لِمَا بلغه من موت حَبُوس بن ماكْسَـن. فأتـي حتى نزل على مقربة منها، بموضـع يُعرف بالفُونت، محتقرًا لمن وَلِيَ غرناطة، يزعم أنَّهم أصاغِرُ وأمْرُهم مختلٌّ بَعد حَبُوس، لِمَا أراد الله من هلاكه وهلاك جنسِّيه الخصيان.

وكان جدُّنـا باديـس - رحمـه الله - قد أرى عند ذلك رُؤْيَا أنَّ الحَوْرَ بغرناطة قد سـقط إلى الأرض جميعه؛ فهالَهُ ذلك، وخشي أن تكون الوقيعة عليه، فأرسل في المُعَبِّر وقصَّ عليه. فقال له المُعَبِّر: «أبشـرْ بهذه الرُّؤْيَا! إنَّ الحَوْر شـبيهٌ بالخصيان، الذى * [ق ١٤ ب] لا طَعْمَ له، ولا أصل يتورَّك عليه؛ وهُمْ بهذه المرتبة. ولا شكَّ في سقوطهم وبوارهم على يديك!» فكان ذلك.

وقـدَّم على العسـاكرِ أخـاه بُلُقِّين؛ وكان من أشـجع الناس؛ وكان باديـس، عند موت أبيـه، قـد اختصَّه بكلِّ ما شـاءَ وفَضَّلَه في الميراث على نفسـه إلاَّ النـاضَّ الذى تحتاجُهُ المملكة. فلقى العسـكر المرذول؛ فلم تكن إلاَّ سـاعة من النهار حتَّى انهزم وقُتِل جميعُ من كان فيه الخصيان، وخفي زُهَيْر عن العسكر؛ فلم يوجد حيًّا ولا ميِّتًا. وكانت تلك أَوَّلَ سعادة باديس، كمـا كانت هزيمة المُرْتَضَى أوَّل سـعادة أبيه، ثمَّ افتتح البلاد، وصارت إليه الأنظار التى تَلي المَرِيَّة. وظفر بعدوِّه كاتِبِ زُهَيْر، وأمر بقتله متأوِّلاً لإثارته الفتنة، ونقم عليه أشـياءَ كثيرةً قَبْل ذلك، من أقاويل خَشِنة ومُعامَلات قبيحة عَرَّفَهُ بها.

وقرَّ مُلْكُ باديس جدِّنا قرارَهُ، وطار له الذِّكْرُ. وكانت له من الهَيْبَة في الناس أن لم يَجْتَرِىء عليه أَحَدٌ بعد تلك القضيَّة.

ثمّ إنّ بُلُقّين أخاه لم يلبث بعد تلك الوقيعة إلاّ يسـيرًا حتّى مات - رحمه الله - وكَبرت سـنُّ سَـيْف الدولة فى حال الحداثة، وهو أبونا وترك عمُّه بُلُقّين ابنًا كان يناوئُه ويخشى منه ضـرًّا كثيرًا، ويتوقّع على نفسـه من المُطالَبات بتلك الأخبار؛ فخـرج عن البلد بجميع مالِهِ وتركةِ أبيه، لم يعترض له شيءٌ.

١٨ - شخصيَة الأمير بُلُقّين سَيف الدولة والد المؤلِّف

ولم يكن للمُظفَّر جدِّنا غير بُلُقّين أبينا - رحمهم الله -. وكان رفيقًا به، مشفقًا عليه، حَذِرا مـن أعدائـه وبنى عمِّه أن يُبلغوه من بعده بما بُولـغ هو به بعد وفاة أبيه؛ فكان لا يحسُّ من أحَـدٍ داخِلةً ولا نفاقًـا إلاّ ونظر فيه بما يوافق أمْره من إخمالٍ أو نَفْيٍ أو أخْذِ مالٍ، لئلاّ يبقى لابنه مَنْ يُناوئهُ ويُذِلُّه.

وكان سَـيف الدولـة حليمًا * [ق ١٥ أ] رَفيقًا، ضـدَّ أبيه فى كلّ حال؛ فإنّه لم يجرِّبْ مـن الأمـر، ولا ابتُلى بما ابتُلِىَ هو به. وكان يَعِدُ الناسَ بالجميل، ويقول لهم: «أنا أنسـيكم طريقةَ أبى!» ومن استَجوب من أبيه القتل أو أدْنَى ضَرَر؛ كان هو الذى يعنى بأمره، ويتشفَّع فيـه عنـد الأب؛ حتّى يتخلَّصه. فأجمع النـاس على محبّته خاصّةً وعامَّـةً للذى يرون من مَكارِمه، مع تمكين أبيه له وبَسْطِ يده على الأموال.

١٩ - نشاط يوسُف بن نَغْزالَة اليهودىّ ومؤامراته

وكان فى زمانه للمُظَفَّر أبيه وَزيرانِ ابنا القَرَوىّ: أحَدُهما علىٌّ، والآخر عبد الله، ممن نشأ معه؛ وكانا حَضِيرَيْهِ فى المكتب؛ وكانا قائدَى العسـكر؛ وإليهما كان يرجع الرأىُ فى أمور الفِتَن[١]. وكان أبو إبراهيم الشيخُ مُؤْذِنًا لهما، مستعينًا بهما.

فلما توفّى أبو إبراهيم، وترك ابْنَهُ وزيرَ جدِّنا، ورث لأبيه أموالاً كثيرةً، ووصَّاهُ بأن يسعى فى طلب الوزراء عند اسـتقامة الدولة للرئيس، وعـرض عليه الأبواب التى منها يكون حَتْفُ كلّ واحد منهم، لِمَا كان بأيديهم من البلاد واستِئْثارهم بالجبايات.

فجعل الخنزير نَفْسَه لذلك. وكان المُظَفَّر - رحمه الله - لا يقبل منه مُطالَبةً لمُسْلِم، ولا عرَّضه لذلك، غير أنّه كان يتلطَّف بالأموال، ويعطى لثِقاته وعَبيدِه ما يجعلهم فى المُطالَبة على هواهُ، وهو سـاكتٌ، لا يتكلّم بشـىءٍ مثل أن يَدُسَّ فى طَلَب أحَدٍ على يدىْ مُوَفَّق الخصىِّ صاحِب المدينة من ثِقات باديس؛ وكان منتصبًا لهذه المشـابه؛ فيأتى مُوَفَّق المذكور بنصيحة إلى السلطان ممَن يزعم أنّه من أهل الشـرّ؛ فيُرْسَـل فى اليهودىّ ويُقال له: بلغنى أمرُ كذا وكذا.» فيُريه اليهودىُّ التبرُّؤَ مـن ذلـك بأن يقول له: «كلُّ ما نُقِل إليـك * [ق ١٥ ب] كذبٌ: فتثَبتْ[٢]» فيقول له الرئيس:

(١) أصل: «الفتون» .

(٢) أصل: «التبرئ» .

«أخْبَرَنى مَنْ لا شكَّ عندى فى نصيحته!» فكان آخرُ ما يقول له: «ما قَطْعُ الشرِّ إلاّ سياسةٌ!» وكان لمُباهاتِه ومَخْرَقتِه، يُرى الناسَ أنّه يقدر؛ ولم يكن ذلك سنه، إلاّ عن تحيُّلٍ ومكر.

فلما توُفى أبو إبراهيم الشيخ، وكان ابنُه فى سنّ الصبا، كَرِه توليته جدُّنا، وقال لعلىّ المذكور: «التزمْ خِدْمة المملكة، فأنْتَ أحقُّ بها!» فأَبى ذلك علىٌّ. واصطفاهُ وَلَدُ أبى إبراهيم بالأموال الجسيمة، وقال: «ليس أرغبُ إلاّ أن أكونَ عَبْدَك وترْبِيَتك؛ ولك الأمرُ، وأنا كاتبٌ بيـن يديـك، وأقوم بنَفَقَتك كلِّها، ولَوْ كان أهْلُكَ عَـدَدَ الحَصَى!» فطمع علىٌّ فى قوله، وكلَّم السلطان فى ذلك، وقال له: «إن أبْقَيتَ على وَلَد أبى إبراهيم ناصِحك، فأنا أرجو ذلك لوَلَدى من بعدى؛ وأنا المُشْرِفُ عليه.» ففعل السلطان ما قال، وقدَّمه على العُمَّال والجبايات. وكان يعطى لعلىٍّ صدراً من دولته إلى أن كَبِرَتْ سنه.

وأظهـر [ولَدُ أبى إبراهيم] للسـلطان نصائحَ كثيرةً حظِىَ بها عنـده، وتَبَرْمَكَ على علىٍّ وغيره، واسـتوثق من جانب الرئيس ما لم يَسْـأل به عن علىٍّ ولا عن أحدٍ من خلق الله. وكان فيمـا قال لـه: «إنَّ الذى يأخذ علىٌّ أنْتَ أولىٍ به؛ والرجـلُ كثيرُ الأولاد والضَّفَف، ويذهب مالُـك إن لـم تَحْمِنى وتعضدنى. وهو متى تملأ، طَمِع فى مُلْـكك! وأنا رجلٌ ذِمّىٌّ لا همةَ لى إلاّ خِدْمَتـك وجَمْـع الدراهم لبيت مالك!» فوَثِقَ الرئيس بقوله، وقاس عليه بعقله، ومنع منه عليًّـا وجميـعَ الناس. ولما رأى علىٌّ تأَخُّرَهُ وتَقَـدُّم اليهودىِّ، ندم ما كان منه أوّلاً؛ وفاتَهُ من الأمر ما لم يقدر معه على حيلة عند السلطان؛ وغَاظَه ذلك وأكْرَبَهُ.

وكانـت مَدينـةُ وادِى آش * [ق ١٦ أ] بيَدِهِ، قد قدَّم عليها أخاه عبدَ الله؛ وكان يأكُلُها طعمةً، ولا يعطى منها فوق خمسـة ألف دينار دَرَاهِم، وهى تُسـاوِى أزْيَد من مائة ألف دينار ثُلُثيّة. فدخل عليه اليهودىُّ بهذه المُطالبة وقال للسـلطان: «اقبض وادى آش مَنْ عنده، ولك منِّـى فيها أزيد من مائة ألف!» فقال له: «لسـتُ أقـدر على أخْذها منه بهذا الوجه؛ فتكون مفاسدةً، وهم متصرِّفون فى خِدْمَتها». فوجد اليهودىُّ السبيلَ إلى حيلة فى نزعها باسْم سيف الدولة أبينا، وقال: «لآخُذَنَّ البلدة من يد عدوٍّ، فأضعُها فى يد سلطان يشكرنى عليها، ويَرَى لـى ذلك عن تخدُّم ونصيحة!» فقال لأبى: «إنه يلزمنى طاعتُك ونصيحتُك لأكون لك كالذى أنـا لأبيـك؛ وأراك كثيرَ الذُّرِّيَّة، تلزمك نفَقَات وتجمُّل الرياسـة؛ ومن الغبن أن يكون وزراءُ والِـدَك أغنـى منك! وهذه وادى آش، بِنْتُ غرناطة، لا تجمـل إلاّ لك، وأنا أُثَمِّرُها وأجعلك تأخذ فيها مائة ألف!» ففرح لقوله والِدِى - رحمه الله -، وشكر له رأْيه، ووعده بالزيادة فى مرتبته إن صار الأمرُ إليه. ثمّ مضى إلى الوالِد؛ فأخبره الخَبرَ، وقصّ عليه أمْرَ ابنه؛ فقال له المُظَفَّر: «الآن وجب أَخْذُها من أولاد القَرَوىّ.» فأرسل على المقام فى علىٍّ وقال له: «إنّ ابنى محتاجٌ إلى المال، وطلب منِّى وادى آش. ولو كنت آخِذَها منك ومُعْطِيَها لقِرْنِك، لَعَزَّ عليك!

ولكن يجب لك أن تتسرّع بها لابني.» فلم يكن جواب عليٍّ إلاّ أن قال له: «ما صَلُح للمَوْلَى علـى العَبْـدِ حَرَامٌ!» فضمّها اليهوديُّ خادمًا لأبي فيها، وشرط عليه أن يعطيه رَسْمَها في أنْجُم العام؛ واتفقا على ذلك * [ق ١٦ ب]. وصارت المودّة متمكّنة بين الابْن والوزير مُدّةً طويلةً.

٢٠ - موت الأمير بُلُقّين مسمومًا

فلما رأى وزراءُ الدولة وعليٌّ وأخوه تَمَكُّن اليهوديِّ عند السلطان وعند الابْن، أغاظهم ذلك وأقْلَقَهم، وبلغ منهم كلَّ مبلغ. وأجمع رأيهم على الدخول بينه وبين أبينا. وكان أولاد علي وعبد الله وزَرَاءَ لسَيْف الدولة ونُدَماءَ، لا يُفارقونه. فعملوا عليه من كلِّ وجه بأنفسهم ومعَ بنيهم، وقالوا لسَيْف الدولة: «إنّ الأموال التي يغنم اليهوديُّ ويستأثر بها، أنتَ أحَقُّ بها وأوْلَى. وقد أخملَك وأخمل الدولة أجمع! ولو أنّك قَتَلْتَه، لم يقلْ لك أبوك في ذلك شيئًا! وما عسى أن يصنع بابنه؟» أرادوا - الفَسَقة - قَتْلَ عدوِّهم على يدى ابن الرئيس، ليخرجوا أيديهم من المسألة: فإن عاقَبَ، عاقَبَ ابنَهُ، إن شاءَ، وحصَّلوا على الدولة دون ملامة من السلطان. فلم يزالوا به أبدًا، ينمُّون باليهوديِّ، ويكذبون عليه، ويمضون[1] إلى اليهوديِّ بالكذب على لسانه؛ حتّى تغيَّر أبونا عليه وتغيَّرت له نفسُ اليهوديِّ، مع قلّة تجارب سَيْف الدولة لمكايد الناس. فعمل على قتله؛ وكان يتحدَّث بذلك، ويفشى سرَّه إلى الوزراء الرافعين إليه؛ فلا هو يعزم على قتله، ولا هو يتكتَّم بالأمر، إلى أن صحَّ ذلك عند اليهوديِّ، واعتزم رأيَه على أنْ يسبقه بالأمر، ورأى عيانًا تغيُّره عليه. وكان أبونا، لمّا همَّ بقتله، وأعَدَّ لذلك عبيدَه، فكّر في سطوة أبيه، فكَفَّ.

وكان لسَيْف الدولة أخٌ صغيرٌ اسْمُه مَاكَسن، عُمنا الشهيدُ في وقيعة بَطَلْيَوْس فعمل الخنزير رأيَه مع مَشْيَخَة اليَهُود، * [ق ١٧ أ] وأخْبَرَهم بتغيُّر سيف الدولة عليه؛ فقال له أحَدُهُمْ وأدْهَاهُم رأيًا: «لا تطمع في الفلاح بعد الشيخ، ولا في سَيْف الدولة! ولكن انظُرْ لنفسك فيمَنْ تُقِيمُ إن مات رَئِيسُك: أوجَدْتَهُ؟ وتحيَّلْ في سَقْي سيف الدولة. وهذا مَاكْسَن أخوهُ مخمولٌ؛ فإنْ قَتَلْتَ أنت هذا، ووَلّيْتَ هذا، قدَّمْتَ عنده يدًا لا ينساك عليها!» فسوَّلَتْ له نفسُه سَقْيَهُ. وكان متمكّنًا بذلك، لأنَّ أبانا كان كثير الشرب معه والتكرار عليه في منزله. فشرب يومًا عنده على عادته؛ فلم يخرج عنه حتّى قذف ما كان في جوفه؛ واستلقى على الأرض؛ فلم يَسْتطع المشي إلى منزله إلاّ عن مشقّةٍ؛ ولبث يومَيْن يجود بنفسه، حتّى مات- رحمة الله عليه.

ولقد سمعت كبيرًا من خِصْيان باديس يقول: «أرْسَلَ فيَّ سَيْفُ الدولة يومًا وقال لي: «انهضْ إلى أُمَّهَاتِي وقُلْ لهنَّ[2] إنّي اعتزمتُ على قتل اليهوديِّ.» يقول الخَصيُّ: «فقلتُ له: «أنا أمضي بهذه الرسالة! فإنَّ الخبَرَ لا مَحَالةَ عنده! لو أنَّك تريد قَتْلَهُ، ما كان ينبغي لك أن تُسْمِعَني ذلك ولا أَحَدًا من خلق الله!» فعلمتُ أنَّ حاله تَؤُولُ إلى مثل ذلك.» .

(١) أصل: «ويمضوا».
(٢) أصل: «لهم».

وممّا أعان على الفساد قَبْلَ ذلك أنّ أبانا كان مع أُمّهَاتِهِ، اللّائى رَبَّيْنَ وَلَدَهُ المُعِزَّ أخانا، على ضدٍّ من الأَمْن، لإفراغِهِنّ المال على ابنه طفلاً صغيرًا ومَنْعِهِ هو منه. فاحتاج إلى اليهوديّ عن المـال. وكان أُمّهَاتُهُ يُطالِبْنَهُ ويمنَعْنَهُ عن صحبة اليهوديّ. حتى شـعَرا بذلك؛ واتفق رأيُهُما على مُطالبة النساءِ عند الرئيس، وتجريحهنّ بسرقة المال وإرسالِهِ إلى البلاد. فلما وقف جدُّنا علـى المقالة، وقد وقعت المفاسـدة بينهُنّ وبين ابنِهِنّ، صـار مَلُومًا * [ق ١٧ ب] من الأب والنسـاءِ. وتحيَّل النساءُ على أن بَرَّأْنَ[1] أَنْفُسَـهن ممّا قُذِفْنَ به؛ ودَعَت الضرورةُ سَيْفَ الدولة أن يتصالح مع النساءِ لرجوع أبيه معهُنّ؛ ورُدَّت القصّة فى رأس اليهوديّ. فكان ذلك ممّا زاده غائلةً ونفورًا، وجـرى على يديه مـا قـدّر الله به لتمام المُدَّة.

وكان فى أوّل المفاسـدة احتبس له بكثيرٍ من جباية وادى آش؛ وشـكا به سَـيْفُ الدولة لأبيه. فتحيَّل الخنزيرُ على أن دعا أبانا إلى منزله لشـرابٍ، حتّى سـكر؛ وأَمَرَ بخروج بنيه وعيالـه فـى ثيـاب الحزن. فهالَ ذلك أبانا لِمَـا رأى من حالهم وبكائهـم، إلى أن قال له: «هل مات عندك أَحَدٌ؟» فقال له: «مات عندى مالٌ كبيرٌ لا يمتسـك عنك إلّا بمَطْلِ الرعيّة! وهذا يومٌ طيّبٌ: فَأْنِسْ أَهْلى بكَتْب براءَةٍ تبرِّئنى بها إلى أن يَرِدَكَ مالكَ؛ فإنّهم قد وجِسَـت نفوسُـهم وفزعوا. فأَتِمَّ إحسـانَك بكَتْب البراءَة!» فافْتَرَصَه فيها، وكتبها؛ ثمّ ذهب بها إلى أبيه وقال له: «إنّما ينفق ما لَهُ على الوزراءِ والشرابِ المُدْمِنِ! وهذا إبْراؤُه لى: فأينَ شكواه؟» فرجع مَلُومًا من الأب زائدًا، وصار فى خسارة مع الوزير والنساءِ، لِمَا أراد الله من تمام المدّة. والله ينفعه بجميل نيّته وصَفَاءِ مَذْهَبه للخاصّة والعامّة!

٢١ - ما بلغ ابن نَغْزالّة من المكان الأرفع

فلما توفّى أبونا، وكانت من أكبر الرزايا للناس، لِمَا كانوا يرجونه من العدل على يدَيْه، هاج النـاسُ بأمـره، وهمُّوا بقتل اليهوديّ. وكانت تلك مقدّماتٌ لهلاكـه، غير أنّهم كانوا يتوقّعون معاقبة الرئيس. وزاد فى طَلَبه لأولاد القَرَوِىّ، وصوَّر عند المُظَفَّر أن بنيه زيّنوا لابنه الإدمان على الخمر حتّى هلك. وأدركتْ لذلك أولادَ القَرَوِىّ منحسـة عظيمةٌ من نَفْيهم عن أوطانهم، وأَخْذِ أموالهـم؛ وقَتْـلِ بعض الوزراءِ * [ق ١٨ ب] الذين كانوا حَوَالَىْ أبينا لِمَا اتّهمُوا به؛ وجانِى القضية لا يُوبَهُ له. وتَبَرْمَكَ اليهوديُّ بعد سَيْف الدولة، وسعى فى إقامة مَأْكَسٍ عنّا.

وكَبِرتْ عند ذلك سـنُّ جدّنا، وأَخْلَدَ إلى الراحة، وزَهِدَ فى طَلَب البلاد لكبر سـنّه وموت ابنه، وألقى بمقاليده إلى اليهوديّ فى الخدمة عنه؛ فتمكّن بما شاءَ من الأمر والنَّهْى.

٢٢ - استيلاءُ باديس على مالَقة

وإنّما كان طَلَب جدّنا أَكْثَرُهُ وسـعيه على أَخْذ مالَقة؛ فإنّه، متى كان يأخذ شـيئًا من مَعاقِل الأَنْدَلُـس، يبلغه من المُعِزّ بن باديس أنّه يقول: «يخاطِبُنى صاحبُ غرناطة بأَخْذ الكُوَر والقُرَى!

---

(١) أصل: «بررن».

أمَا أنَّه لو أخَذَ مثل قُرْطُبة ومالَقة وما أشبههما من القواعد، كُنّا نبايع له في ذلك!» فجعله كلامُه يجدُّ في خبرِ مالَقة، وللَّذي كان يرَى من اندبار سلاطينها، وتوقُّعِه على أن يأخذ البلدةَ مَنْ يُدْخل عليه الداخِلةَ منها. فلم يزل يعاودُها سِنين[1] بلا سآمة ولا فترة، حتى حصل عليها.

وبنى قَصَبتها بنياناً لم يقدر على مثله أحَدٌ في زمانه، وأعَدَّها عُدَّةً للمُهِمَّات، وجعل فيها جميع ما ورث لابنه، وزاد عليه؛ وكان الذي يتوقَّع من كَلَب سلاطين الأنْدَلُس واتفاقهم عليه لذلك أن يتحصَّن فيها ما استطاع، وإلاّ، فيجوز منها إلى عِدوة بني عمِّه بأهْله وذخائره ومُذْ أخَذَها، حلَّ عن نفسه.

ونازَعَهُ عليها ابنُ عَبَّاد، وأطاعَهُ أهْلُها دون القَصَبة؛ فوجَّه إليها عساكِرَه، وهزمه عليها. ورجعَـتْ إليــه بعد اليأس منها. ولم يُلاقِ سـلطانٌ علي مدينةٍ ما لاقَى هو علي مالَقة من طول الفِتَن ونفقة الأموال. فلما بلغ منها الغاية من آماله، حلَّ على نفسه، وتمتَّع بمُلْكه. ومن ذلك دخلت عليه الدواخِلُ باستنامته إلى الوزراءِ وولاةِ البلاد، على حسب ما نَقُصُّه بعد هذا.

ولولا ما كان غَرَضُنا وَصْفَ دولتنا خاصَّةً، لذَكَرْنا لُمَعاً من دُوَل بني حَمُّود في مالَقة، واختلالِ أمْرهـم [ق ١٨ ب] واحِـدًا بعد واحد، حتى تصيُّر الأمْرُ إلى جدِّنا – رحمه الله –؛ لكن نقتصر على ذِكْر مـا نـحـتـاج إلى إيراده إن شاء الله.

فتهدَّنــت الحال، وتأتّت الـسـعادات، وامتلأتْ بيوتُ الأموال سِـنين[2] لا يُسـمع فيها بفتْنـة، ولا يُـرَى معهــا تشـغيبٌ؛ إلــى أن اختلَّت الأحوال بعــد ذلك بمــا كان من نفاق اليهوديّ– لعنه الله –، وتَصْيير وادي آش وجميع أنظارها لابن صُمادِح، واستِئســادِ الرؤساء على البلاد، حتّى إنّه لم يَبْقَ لنا أكثر من غرناطة والمُنكّب وباغُه وقَبْرة. ولما شاع عند الرعايا خبر الرئيس الأجَلّ – فإنّه كان مُحْتجباً أبَدًا – خَلَت المعَاقِل من الرجال، وافترصَتْها الرعايا بأسبابٍ نَحْنُ نَذْكُرُها[3] إن شاء الله بعد هذا.

٢٣ - علاقات باديس ببني صُمادِح أصحاب المَرِيَّة

والأَوْلَى أن نقدِّم وَصْفَ ولايةِ ابن صُمادِح للمَرِيَّة، وعضدَ جدِّنا– رحمه الله – لرياسته، وإثباتَه له في مُلْكه عند قيام ابن أبي عامِرٍ عليه، طالبًا له لخلافه عليه، وأيادي كريمة ســلَفَتْ من المُظَفَّر قبله، لم يسبقْه إليها أحَدٌ من جنسه، ولم تكن مكافأتُه على ذلك إلَّا أن افترض بلادَه وقَبِل دواخِلَ إلى الإفْرَنْج، يَعِدُهم بالمال الكثير. وأجابَهُ مُجاهِدٌ لما أشــار به عليه؛ وعملت الكلمةُ في نفسه؛ فلما هَمَّ ابن أبي عامِرٍ بالرجوع عن لُرْقة يُريد المَرِيَّةَ، تأَخَّرَ عنه مُجاهِدٌ، وتبيَّنَ للمَنْصُور قعودُه عنه وخذلانُه إيَّاه؛ وســألَهُ عــن ذلك. فقال مُجاهِدٌ مُخاطِباً له ولأعلام قوّاده: «يــا قوم، إن كنتم لا تعرفــون البَرْبَر، ولا جرَّبْتُم حُروبَهم، فأنا، والله، عليمٌ بها! فإيّاكم أن

(١) أصل: «سنينا».

(٢) أصل: «سنينا».

(٣) أصل: «ذاكرها».

يكون بَوَارُكم على أَيديهم. وأنتُم [ستعلمون] أنَّ فِتْنة عشرين سنة خيرٌ من ملاقاة ساعةٍ واحدةٍ، فإنَّ فيها تتلف الدُّوَل، وينتقل المُلْك، ويستأصل الجمع. فعليكم بالتأنّي» فقال له ابن أبى عامر: «جَبُنْتَ! ارجِعْ إلى دانيةَ ولا تفسد علىَّ الجيش!» فأقلع على المقام مغضبًا من قذفه.

وجزع الناس بزوال مُجاهِدٍ عنهم، وأدرَك * [ق ١٩ أ] الإفْرَنْج الطمعُ، وطلبوا منه ما لا قدرة له به. وانصرف خاسئًا.

وجمع المُظَفَّرُ رجالَه وقال لهم: «كيف تَرَوْن هزيمة هذا العَسْكَر من غير قِتال؟» فأجابوه أن: «قد وُفِّقتَ! وأنتُم، مَعْشَرَ الملوك، لم تُعْطوا الولاية على الناس حتى اختاركم الله لها، وجعل عقولكم أَجَلَّ وأَنْفَسَ من عقول الناس؛ وبذلك فضَّلتم من دونكم!» ورجع المُظَفَّرُ غالبًا منصورًا. وصار أبو الأحْوَص [بن صُمادِح] طاعةً له، لا يروم شيئًا من كلِّ ما بالمَرِيَّة إلّا وصار إليه، ولا يأمر فيها بأمْرٍ إلّا وكان مِلْكَ يَدَيْه. وبقى الأمرُ على ذلك سنينَ.

وكانت قُرْطُبة فى ذلك الزمان بمنزلة المَرِيَّة، إذ كان فيها ابنُ السَّقَّاء، لا يمتنع على المُظَفَّر من رغباته فيها شيءٌ؛ إلى أن توفّىأبو الأحْوَص، وترك ابنه هذا المتوفّى بالمريَّة – رحمه الله– عند ظهور المرابطين عليها، وهو إذ ذاك صغير السنِّ. فأرسل إلى المُظَفَّر يرغب إليه أن يكون له فى العضد والحماية بالمنزلة التى كان عليها لأبيه، وأنه أحسنُ طاعةً وأشدُّ انقيادًا من أبيه؛ وسأَلَهُ تجديد العَهْد معه والاجتماع به. فأجابه المُظَفَّر إلى كلِّ ما سأَل، ووعَدَه بالذبِّ عنه على أتمِّ ما كان عليه لأبيه، واجتمع به.

وجدَّد معه عَقْدًا. وثبتَتْ رياستُه، وقَرَّ حاله قراره، وداما على ذلك دَهْرًا طويلًا، لا يُسمع فيها بِفتْنة، ولا يكابد معها تشغيبٌ.

وكان فى ذلك [الوقت] خدَّامُ دَوْلتنا مُتَّفقين مع اليهودىِّ، إذ كان وزيرَ السلطان وصاحبَ سرِّه: فمنهم صَنيعَةٌ له قد استغْنَى معه، ومنهم عَدُوٌّ له، مُؤَازِرٌ فى الظاهِر استدفاعًا لشرِّه. فاتَّسَقَت الأمور بذلك، وأعانَ بَعْضُهم بَعْضًا على خدمة السلطان، وأنِسُوا إلى ثِقَته بهم وعَضْدِ بعضهم لبَعْض. ولما تهيَّأت به الأمور، وتوطدت الدولة، بعد كلِّ ما ذكرنا من تلك الفِتَن(١) وغيرها، وحصّل على مدينة مالَقة بعد المكابدة واليأس * [ق ١٩ ب] منها، حلَّ عن نفسه، ومال إلى الراحات التى يستريح إليها الملوك، وفوَّض أَمْرَه إلى الوزير والخَدَمَة.

٢٤ - وصول النَّاية إلى غرناطة حظوته ومنافسته لليهودىّ

و فى أَمْكَنِ ما كانت الدولة وأَبْهَجِها، قصدَه النَّايَة، عبدٌ كان للمُعْتَضِد بن عَبَّاد – رحمه الله – ؛ وكان من جُمْلة من اتَّفق على غدره مع ابنه المشهور خَبَرُه؛ فأتى للقَدَر الذى لم يكن عنه محيصٌ. واعتنى به جماعةٌ من كبار العَبيد، وطلبوا له من السلطان العَطَايا؛ فأجابهم

(١) أصل: «الفتون».

إلى ذلك تَقَمُّنًا لسـرورهم [1]، كَيْ يزيدوا في خِدْمته ونصيحتِهِ؛ وقالوا له: «قَصَدَك هذا الإنسـان عن مفاسَدِةِ لغَيْرِك وتعويلِ عليك؛ وقد أَمَّلَكَ؛ فما تصنع فيه إنما تُسديه إلينا.» ودخل غرناطة في أسْعَدِ وقت له، وأشْغَبِهِ على الدولة. وسار في أوّل أمره مع الخَدَمة بأجمل سيرةٍ وتواضُعٍ لهم، حتى حمدوا طريقته، ونفعوه عند السلطان، إلى أن استعمله في بعض خِدْمَته وصرَفه فيّ ولاية بعض عسكره. وكان لطَلَبه الثأر من بني عَبّاد، قد اكتفى في فِتْنة مالَقة واستمال أقوامًا من الجُنْد؛ وكان فيها مُتصَرِّفًا بين يدي مُقاتِل بن يحيى قائدها. ولم يزل مُقاتِلُ المذكورُ، متى خَرجَـت مُغيـرةً إلى بَلَدَ ابن عَبّاد، يُعلم المُظَفَّرَ بكفاية النابة المذكور فيها، حتى كاد يجعل له الحسَّ كلَّه، إلى أن ورده كتابُ السلطان مشتركًا بينهما، وصار قائدًا معه في البلدة. وزاد جِدُّه، ونَما خَبَرُه، وتَضَاعَفَ إحسانُ المُظَفَّر إليه. وكان، متى ما أتى مالَقة، نزل السلطان في داره، وشرب معه، مع تنويهه به والتزيُّد له من ذلك مع الأيّام.

وكان، مع تقريب السلطان له مَتَى انْفَرَد به أو افْتَرَصَه على الخَمر، يجرِّعُ عنده اليهوديَّ، ويقول له: «قد أكَلَ مالَكَ، وتملَّك بأعظم من مالِك، وبَنَى خَيْرًا من قَصْرك! فالله الله في إزاحتِه والتحبُّب إلى المسلمين بفَقْدِه!» والمُظَفَّرُ في هذا كلِّه يَعِدُه ويقول له: «لابُدَّ لي من ذلك؛ وأوَكِّلُك [ق ٢٠ أ] على قتْلِه!» فرُبَّما لفظ بذلك بمَسـمَع من لا يُوبَه له من عبيده والمُتصَرِّفين بين يديه؛ فينقلون ذلك علـى المقام إلى اليهـوديّ ليَصِلَهُم عليها. فلا تزداد نفسُ الخِنْزيـر إلا حماقَةً ومُنافَرَةً، ويكاد أن يموت همًّا وحنقًا، مع حسده له على المنزلة التي خُصَّ بها دونَه؛ ورام مطابته عند السلطان بكلّ مرام؛ فلم يقبل منه. فلما رأى أنَّ منزلته لا تزداد إلّا ترفيعًا، وخاف على نفسه أن يحمل السلطان علـى هلكته، انقطع رجاؤه من كلّ وَجْهٍ وقال: «إنَّما اسْـتِهزَاؤُنا بالناس من أجْل عزِّ السـلطان! وأَمِنَّاهم على أنفُسـنا بحمايته وعنايته. وأمَّا الآنَ، فقد انقطع الرجاءُ: لا سـلطان نأْمَنُهُ [2]، وقرين سُوْءٍ يطلُبنا عنده، وعامَّةٌ تريد هلاكَنا، ونَحْنُ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُون في الأرض!».

٢٥ - إجلاء الأمير ماكسن بن باديس

وكان [اليهوديُّ] قد ألقى يَدَه في عمِّنا ماكْسَن، رجاءً منه أن يسند إليه؛ فكان من أشدّ الناس عليه، ولم يكن حَوَالَيْه رجلٌ رشـيدٌ يُسَـدِّده ويأمُرُه بالمُداراة، إلى أن قال له مواجَهَةً: «أتُريدُ أن تقتلني كما قَتَلْتَ أَخي ؟» فعملَتْ في نفس اليهوديّ. وكان ماكْسَن مع هذا كلِّه سَيِّئَ الطَرِيقة، قليلَ البرّ، خَشِـنَ الكلام، يَعِدُ الناس بالشـرّ، حتى كرِهَهُ أهْلُ دولة أبيه وأبغضوه. وكَثُرَ عليه الطَلَبُ عند أبيه.

وكانت أُمُّهُ تَتْرُك معاملة الوزير الذى ألقى يَدَه فيه، وتَمِيلُ إلى خَالِه: يهوديٌّ يُعْرَف بأبي الربيع بن المَاطُونيّ، وكان قابضَ الوجيبة؛ فتخاطِبُهُ أبدًا، وتَطْلُبُ منه مالًا باسْـم السـلف. فغـارَ الوزيرُ لذلك، وعمـل على طَلَبه وطَلَبِ أمِّه وحاشـيتِهِ؛ وافترى عليهم عند السـلطان.

---

(١) أصل: «لسارهم».

(٢) أصل: «نأمنوه».

وشـهد له على ذلك جماعةٌ من أهْل الدولة، ممَّن نقموا على ماكْسَـن قَبْلَ ذلك ما قدَّمْنا ذِكْرَه. وأغْـرىَ بهـم حتى جعلَتْه الأنفة من مكروه ما نُقِلَ إليـه أن يأمر بقَتْل أُمِّه ودَاياتِهِ وبَعْضِ من انتمَى. وقتل الوزيرُ خَالَهُ غدرًا * [ق ٢٠ ب] فى منزله على الشراب لخِلافِهِ عليه فى هذا وغَيْرِه؛ واتَّقى منه نصيحة السـلطان، وأعطاه على ذلك مالًا جسـيمًا، لئلاَّ يثرب عليه قَتْله. فقبلَ السلطانُ ذلك منه، وودَّ أن لو قَتَلَ كلَّ يوم يهوديًّا، فيُغْرِمَ عليه مالاً.

ثمَّ أمر بعد ذلك بنَفْيِ وَلَدِه. وكان من آكَدِ الأسباب فى نَفْيه أن خرج السلطان يومًا لعَرْض الأجناد، وقتَ الفِتْنة معَ ابن صُمادِح؛ فانتدب إليه من شـيوخهم من قال له: «ما ينبغى لك أن تُقَـدِّمَ علينـا العَبِيد وغَيْرَهم، وتَتْرُكَ مثل هذا الابْن! أرْسِـلْهُ معنا، ونتَّبعه فى كلِّ مُلِمَّةٍ!» يعنى ماكْسَن. فعزَّ ذلك على أبيه، مع سَخْطه عليه لِما كان يَرَى منه ونُقِل إليه عنه، وخاف أن يكـون وراءَ هذا الكلام فعلٌ بأن يخلعوه ويقدِّموا ابْنَه. وجزع اليهوديُّ لذلك جزعًا شـديدًا وقال: «ما حسـبتُ نفسى فى ذلك اليوم إلَّا مقتُولًا!» فأَعْلَمَ السلطانَ بهذه الوجوه؛ وأمر على المقام بنَفْيه عن البلَدِ، ووجَّه معه من عبيده من يُخْرِجه عن نَظَره كلِّه. ووصَّى اليهوديُّ – لعنه الله – ذلك[1] العبد أن يَصِلَ معه إلى موضع سمَّاه بحيثُ يخفى أمْرُهُ، فيضرب فيه عنقَه.

وكان أخونـا المُعِزُّ قد ربَّاه جَدُّه، ونال معه الكرائـم، وأحَبُّوهُ فى حُرْمة أبيه. واتَّفق رأىُ الجميع مع اليهوديِّ على قَتْل ماكْسَـن وتوليةِ المُعِزِّ، حذرًا على أنفسـهم من ماكْسَن أن يثور عليهم ويعاقِبَهم بمَحَبَّتهم فى [ابن] أخيه وتَرْبيتَهم له. فكان من ذلك ما أمَّلُوهُ.

وخرج عَمُّنا على أسْوأ حالٍ، مذعورًا، خائفًا، بَعْضُهم يُشير بقَتْله، وبَعْضُهـم يأْبَى إلَّا إزاحته عن النَّظَر كلِّه، حتَّى صار ببعض الطريق. وانحلَّ عن غمومه بهلاك اليهوديِّ، على ما نذكُرُه بعد هذا.

* * *

---

(١) أصل: «لذلك».